التاريخ العام

التاريخ العام، عبارة عن الحوادث التي رافقت الإنسان في أول وجوده إلى الآن. أو ذكر ما انتاب الأمم من التقدم أو التأخر والصعود أو الهبوط في السياسة والاجتماع، أو هو بيان تدرج البشر في المدنية، ولذلك فهو مقصور على الأمم التي كان لها شأن في ترقية الهيئة الاجتماعية.

وقد عبر بعضهم عن التاريخ بقوله: إنه الفلسفة مشروحة بالأمثال حتى تكون حوادث المتقدمين عبرة للمتأخرين.

والتاريخ العام يقتضي معرفة أخبار الناس من أول عهد الإنسان إلى الآن. وهذا غير ميسور لأن ما وصل إلينا من حوادث البشر إنما هو جزء صغير جدًا في تاريخهم. والإنسان لم يدون تاريخه إلا بعد أن وفق لاختراع الكتابة. وهو لم يوفق إليها إلا بعد التدرج في الرقي أدهارًا، ظهرت في أثنائها دول وأمم انتشبت بينها الحروب، وعقدت المعاهدات، وذهب العقلاء في أثنائها مذاهب فى الفلسفة. فهذه كلها ذهبت أخبارها فلم يصلنا منها شيء، حتى أسماء تلك الأمم، فإنها ضاعت. وإنما استدللنا على وجودها من ثمار أعمالها، أو بما خلفته من الأدوات أو الأحافير أو الخرائب.

وعلماء التاريخ لا يعدون تلك المعرفة تاريخًا. ولذلك سموا المدة التي قضاها الإنسان قبل تدوين أخباره «الزمن قبل التاريخ» وهو أطول كثيرًا في زمن التاريخ تقدم فيها الإنسان شوطًا بعيدًا في سلم المدنية والارتقاء العقلي. وفيها تألفت الهيئة الاجتماعية ووضعت سنن الزواج والإرث. وانتظمت العائلة، وفيها شكلت الحكومات، وأنشئت الأديان. وفيها حدثت أهم الاختراعات والاكتشافات التي بنى عليها البشر رقيهم في زمن التاريخ؛ لأن في تلك الفترة المظلمة، اخترعت الكتابة، واستنبط الطبخ والعجن والخبز والغزل والنسيج والخياطة والبناء. واكتشفت النار والملح، وهما من أهم الاكتشافات.

من لنا بمن يخبرنا عن مخترع الكتابة الصورية؛ لنشيد له تذكارًا، أو مخترع الإبرة لننصب له تمثالًا، بل لو عرفنا مكتشف النار، أي أول من ولد النار بالفرك، لحق له علينا الإكرام الجزيل. إن ذلك وأمثاله من أعمال الإنسان قبل زمن التاريخ لا يدخل في علم التاريخ ولا إلى معرفته سبيل إلا بالتخمين.

أما زمن التاريخ فهو الذي عرفنا أممه وقبائله ودوله وبعض حوادثه، إما من الكتب التي وصلت إلينا أو من النقوش التي قرأناها في الآثار أو من أحوال أخرى. وهو لا يتجاوز في مدته ستة آلاف سنة، نصفها الأول ناقص، وأكثره مبني على الحدس والتخمين. والنصف الآخر محشو في أوائله بالمبالغات أو الخرافات. ولكن أكثره ثابت، لرجوعه إلى النصوص التاريخية بعد شيوع الكتابة.

ما معنى لفظ تاريخ؟

وقبل التقدم إلى ذكر أقسام التاريخ؛ نتكلم عن أصل هذا اللفظ في العربية. وقد اختلفت الأقوال فيه؛ فذهب جماعة إلى أنه فارسي، وقال آخرون: إنه يوناني. وتكلفوا في تخريجه تكلفًا نحن في غنى عنه لأن اللفظ عربي، وفي القاموس «أرخ الكتاب يأرخه أرخًا، وقَّته» أي عرف وقته. ثم تفرع المعنى فصاروا يدلون بها عن علم التاريخ أي ذكر الوقائع والحوادث. ولعل سبب الشك في كون هذا اللفظ عربيًا أن العرب أخذوا التاريخ عن الفرس. وقيل لهم إن اسمه عند الفرس «ماه روز» فعربوها «مؤرخ» ثم اشتقوا منها مصدرًا «تاريخ» وهو تكلف لا حاجة بنا إليه، فدفعًا لكل شك في كون هذا اللفظ عربيًا نأتي بأشباهه من أخوات اللغة العربية.

فهو في العبرانية «يرخ» ومعناه: القمر، ومثلها «يرحا» في السريانية لنفس هذا المعنى ونحو ذلك في الكلدانية والأشورية. وهي أيضًا تدل عندهم على الشهر؛ لأن حسابهم كان قمريًا. وكذلك الشهر والقمر في العربية بمعنى واحد، ولا عبرة في إبدال الخاء «حاء» بين العربية وأخواتها، فإنه عادي فيها. ومن بقايا دلالة «يرح» أو «أرخ» على القمر في العربية، قول العرب «راح» أي ذهب أو جاء في العشي، أي في نور القمر. والمعنى راجع إلى العشي بدون تقييد بالذهاب أو المجيء، مثل قولهم أصبح وأمسى. ثم غلبت فيها الدلالة على الذهاب في العشي ثم صارت تدل على مطلق الذهاب. وقد يكون اللفظ الواحد معناه القمر في إحدى هذه اللغات، والشهر في اللغة الأخرى، فإن «سهر» في السريانية معناها

قمر في العربية وهو «الشهر» بإبدال السين شينًا. وقد بقي في معناها الأصلي في العربية «الساهور» وهو القمر أو غلافه. والخلاصة أن لفظ التاريخ، عربي الأصل والاشتقاق.

أقسام التاريخ العام

اختلف المؤرخون في تقسيم زمن التاريخ وتبويبه. والأكثر يرون قسمته إلى ثلاثة أقسام: الأول، التاريخ القديم ويبدأ بأقدم الأزمان، وينتهي عند سقوط رومية سنة ٤٧٦ للميلاد. والقسم الثاني، القرون الوسطى أو المظلمة، وهي تمتد من هذا التاريخ إلى اكتشاف أميركا سنة ١٤٩٢ مسيحية. والثالث، التاريخ الحديث، من اكتشاف أميركا ولا يزال.

ذلك هو تقسيم التاريخ العام عند كتاب الإفرنج، وهو في اعتبارنا تقسيم ناقص، مبني على الأحوال التي توالت في أوربا وأميركا، ولا يدخل فيها من تاريخ الشرق إلا الدول القديمة في مصر وبابل وفينيقية وغيرها من التمدن القديم. ولم يراعوا فيه الانقلابات السياسية العظيمة التي توالت في الشرق بعد ذهاب تلك الدول. وكان لها تأثير كبير في تاريخ العمران في سائر أنحاء العالم المتمدن.

أما أقسام التاريخ العام بالنظر إلى الشرق وأممه ودوله، فإنه في نظرنا يقسم إلى قسمين كبيرين، أو هما شطران؛ شرقي وغربي، نعبر عنهما بتاريخ الشرق، وتاريخ الغرب. ونقصد بالشرق آسيا على الإجمال ومعها وادي النيل وما يليه من البلاد التي تمدنت قديمًا في أفريقيا، ونعني بالغرب أوربا وأميركا وما يلحقهما.

ولكل من هذين الشطرين ثلاثة أطوار أو أعصر تتشابه في التقسيم ولكنها تختلف في الزمن. لكل منها عصر قديم وعصر متوسط وعصر حديث، لكن الشرق متقدم فيها على الغرب وسابق منه في عوامل المدنية.

فتاريخ الشرق القديم يمتد من أقدم الأزمنة إلى فتح الإسكندر المكدوني بلاد فارس سنة ٣٣١ قبل الميلاد.

وتاريخه الأوسط أو قرونه الوسطى أو المظلمة تمتد من فتح الإسكندر إلى ظهور الإسلام سنة ٦٢٢ للميلاد أو السنة الأولى للهجرة.

وتاريخه الحديث يبدأ بظهور الإسلام ولا يزال، ثم إن تاريخ الإسلام ينقسم إلى عصور سيأتي بيانها.

أما تاريخ الغرب القديم فيبدأ من أول تمدنه نحو القرن الخامس عشر قبل الميلاد في بلاد اليونان. وقد اقتبس أصول تمدنه من أمم الشرق القديمة في مصر وفينيقية وبابل

وغيرها، وينتهي بسقوط رومية سنة ٤٧٦ م. وسبب انقضائه، هجوم البربر، بدو شمال أوربا «قبائل الجرمان» على المملكة الرومانية. وفي أثنائه دخل الشرق في أجياله الوسطى بسقوط دولة الفرس، كما تقدم.

وتاريخ الغرب الأوسط هو عصر الظلمة أو القرون الوسطى في أوربا. يبدأ بسقوط رومية، وتسلط البربر إلى بزوغ نور التمدن الحديث بعد اكتشاف أميركا سنة ١٤٩٢ م. وقد أغفل فيه الغربيون علوم أسلافهم اليونان. ونهض الشرق في أثنائه من عصوره المظلمة بظهور الإسلام وقيام دولة العرب، فأخذوا تلك العلوم وترجموها.

فتاريخ الإسلام هو تاريخ الشرق الحديث. وبه نهض الشرق من غفلته واستعاد رونقه ومجده. وامتد سلطان المسلمين على أضعاف ممالك أسلافهم الشرقيين، وخفقت أعلامهم على مماليك الفراعنة والفينيقيين والآشوريين والبابليين والفرس والأرمن والهند والترك والمغول والمغاربة وسائر بلاد المشرق، وقسم من أوربا؛ في إسبانيا وفرنسا وإيطاليا، مما لم يسبق له مثيل.

أقسام تاريخ الإسلام

يقسم تاريخ الإسلام إلى خمسة أعصر

(١) **عصر التكون والنمو:** من ظهور الإسلام إلى آخر الدولة الأموية بالشام وهو عصر الفتوح في الدولتين، أو العصر العربي.

(٢) **عصر البلوغ:** من أول الدولة العباسية ١٣٢هـ إلى تغلب الجند التركي سنة ٢٢٢ للهجرة. وهو يشتمل على أبان الدولة العباسية. وفيه نشأ الأدب، ونقلت علوم القدماء إلى العربية. وهو عصر الإسلام الذهبي. ويعرف بالعصر الفارسي؛ لأن الدولة فيه كانت بأيدي الوزراء الفرس.

(٣) **عصر التفرع والتشعب:** من تسلط الأتراك إلى سقوط بغداد. وفيه تفرعت هذه الدولة إلى دول من أمم مختلفة؛ في أنحاء مختلفة. ونشأت دول جديدة كدولة الفاطميين بمصر والأمويين بالأندلس والسلاجقة في الشام وغيرها. ونشأت سائر دول الأتراك والأكراد والفرس وغيرهم.

(٤) **القرون الإسلامية الوسطى:** من سقوط بغداد إلى أوائل القرن التاسع عشر.

(٥) **النهضة الأخيرة:** من أوائل القرن الماضي، ولا تزال. وهي مقتبسة من تمدن الغرب الحديث.

ويقسم التاريخ على الإجمال أيضًا إلى عام وخاص. والعام يتضمن تاريخ البشر عمومًا. والخاص يشمل التاريخ الخاص المتعلق بموضوع واحد؛ كتاريخ أمة، أو مملكة، أو ولاية، أو مدينة أو دولة أو عائلة أو شخص. والمتعلق بشخص واحد يسمى ترجمة، أو سيرة، أو حادثة مأثورة؛ كتاريخ الإخلاص، ومذبحة المماليك، وحادثة عرابي، وظهور المتمهدي، ونحو ذلك.

ويسمى التاريخ الخصوصي بأسماء تختلف باختلاف موضوعه؛ كتاريخ الكنيسة والتاريخ السياسي والشرعي والقضائي والتجاري والأدبي والعلمي ونحو ذلك.